

د. عبدالرحمن يونس عبدالرحمن
كلية الآثار / قسم الحضارة

مستخلص البحث:

يعد نهر الخوصر واحداً من الروافد القديمة المهمة لنهر دجلة والذي ما تزال آثار واديه شاخصة للعيان في مدينة نينوى إلى الوقت الحاضر، وبحسب الأدلة الكتابية المكتشفة فإن أول إشارة إلى ذكر نهر الخوصر في النصوص المسمارية وردت في مدونات من العصر الآشوري الوسيط وتحديداً من عهد الملك توكلتي - آبل - ايشرا (تكلاتبليزر) الأول ١١١٥-١٠٧٧ ق.م، إذ وردت تسمية النهر في نصوص هذا الملك بصيغة (خُسِر) ^(ID)ūsir، تسبقها العلامة الدالة على النهر (ID)، في حين دونت هذه الكلمة في نصوص العصر الآشوري الحديث (المتأخر) من عهد الملك سين - أخي - أربيا (سنحاريب) ٧٠٤-٦٨١ ق.م بصيغة (خُسُري) ūsuri أو (خُسُر) ^Dūsir، وأحياناً تلفظ بصيغة خوسر ūsar. واستمرت هذه التسمية كما يبدو تطلق على النهر عبر قرون وأجيال متعاقبة وإلى يومنا هذا ما يزال النهر يُكنى بـ(الخوصر) على الرغم من مرور أكثر من ٣٠٠٠ سنة من الآن على تدوين هذه الكلمة في النصوص الآشورية.

وعلى الرغم من قلة المعلومات التي توضح أسباب تسمية النهر بالخوصر في النصوص المسمارية، وهل أنها ترتبط بعدد منابع العيون التي تُجهز النهر بالمياه، كما أشار إلى ذلك أحد الباحثين، إلا أن الرأي الراجح في هذه التسمية كما يبدو أنها أُشتقت من شكل النهر وتخصره عند موقع (تل قوينجق) بعد اختراقه الجدار الشرقي لمدينة نينوى القديمة فاكتسب النهر هذه الصفة وانفرد بها عن غيره من الأنهار أو الروافد الأخرى لنهر دجلة.

وشكلت الأمطار ونباتات العيون الواقعة ضمن حوض نهر الخوصر المصادر الرئيسية التي كانت وما تزال تغذي النهر بالمياه، وبسبب قلة الأمطار وعدم كفايتها لتلبية احتياجات النهر من المياه في معظم أشهر السنة فإن الحاجة كانت تدعو إلى إيجاد السبل الكفيلة لتعزيز القدرة المائية لنهر الخوصر، وكان التوجه في ذلك هو كيفية الاستفادة من مياه العيون وتوسيع منابعها لزيادة إنتاجيتها من المياه وضخها باتجاه الخوصر ومدينة نينوى. ولم يتوان الملوك الآشوريون وفي مقدمتهم الملك سين - أخي - أربيا ومن قبله الملك توكلتي - آبل - ايشرا كما نقيدهم في ذلك كتاباتهم ذات العلاقة بهذا الجانب أن سعوا إلى إقامة مشاريع الري على ضفاف نهر الخوصر ونباتات العيون التي كانت تغذيها للاستفادة من مياهها واستخدامها في مختلف المجالات، ومن أهم تلك المشاريع كانت السدود وحفر القنوات وما يرتبط بهما من أعمال تكميلية كانت تصب في تحقيق الهدف الذي من أجله أُقيمت تلك المشاريع وهو إيصال المياه إلى نهر الخوصر ومدينة نينوى.

ويستشف من بعض النصوص المسمارية ذات العلاقة بنهر الخوصر أن دوافع اهتمام الملوك الآشوريين بالنهر فضلاً عن أهمية العامل الزراعي كانت ترتبط بمفاهيم دينية ودعائية وأمنية وأن جُل أعمالهم في هذا المجال وغيره من المجالات الأخرى كانت تصب بالدرجة الأساس في نظرهم في تعزيز سلطة الملك ومكانته لدى الآلهة وكسب رضاها ومن ثم التفاخر بها أمام شعوبهم والأجيال المتعاقبة من بعدهم.

ولا شك في أن أملنا في هذه الدراسة أن تكون حافزاً مشجعاً للمهتمين والمسؤولين في مدينة نينوى أن يحذوا حذو أسلافهم الآشوريين ويعملوا بجد على إعادة إحياء نهر الخوصر والاستفادة منه ليس فقط للتخفيف من شدة الأزمات المائية التي تحصل بين الحين والآخر وإنما أيضاً ليكون رافداً فعالاً لتعزيز القدرة المائية لنهر دجلة والاستفادة منه في شتى مجالات الحياة.

إلى ذلك فقد تضمنت هذه الدراسة أربعة محاور تناول الأول تسمية نهر الخوصر في المصادر المسمارية وامتداد تأثيراتها إلى الوقت الحاضر، وشمل المحور الثاني أقدم ذكر للنهر في النصوص المسمارية، فيما تطرق المحور الثالث إلى حوض النهر ومصادر تجهيزه بالمياه، أما المحور الرابع فقد تضمن دوافع اهتمام الآشوريين بنهر الخوصر والسبل الكفيلة للاستفادة من مياهه.

يعد نهر الخوصر واحداً من الروافد القديمة المهمة لنهر دجلة الذي ما تزال آثار واديه شاخصةً للعيان إلى وقتنا الحاضر في مدينة نينوى. وعلى الرغم من أهميته الأثرية والتاريخية إذ يعود أقدم ذكر للنهر بحسب النصوص المسمارية إلى عهد الملك الآشوري توكليتي - آبل - ايشرًا (تَكَلَّا تَبْلِيْزِر) الأول (١١١٥-١٠٧٧ ق.م)، وبالنظر لعدم وجود دراسة بحثية متخصصة للنهر من العصور العراقية القديمة، لذا ارتأينا دراسة الموضوع بالرغم من قلة المعلومات المتوفرة عنه وندرته، وحاولنا الاعتماد بالدرجة الأساس على تحليل ما هو متوفر من معلومات عن نهر الخوصر في النصوص المسمارية، وتحديدًا ما ورد في كتابات بعض الملوك الآشوريين لتقديم دراسة أكاديمية متواضعة تلقي الضوء على مكانة النهر وأهميته قديماً عند سكان بلاد الرافدين، وكيف أن الآشوريين على وجه الخصوص حاولوا الاستفادة من مياهه بشتى الطرق وتوظيفها لخدمة عاصمتهم القديمة نينوى. وأملنا في هذه الدراسة أن تكون حافزاً مشجعاً للمهتمين والمسؤولين في الوقت الحاضر في أن يحذوا حذو أسلافهم الآشوريين ويعملوا بجد على إعادة إحياء نهر الخوصر والاستفادة منه ليس فقط للتخفيف من شدة الأزمات المائية التي تحصل بين الحين والآخر في المدينة، وإنما أيضاً ليكون رافداً فعالاً في تعزيز القدرة المائية لنهر دجلة والاستفادة منه في شتى مجالات الحياة.

المحور الأول التسمية

الخوصر بحسب المصادر المسمارية تسمية قديمة تمتد بجذورها التاريخية إلى ما قبل الميلاد بأكثر من ألف سنة تقريباً، وعلى الرغم من عدم إمكانية تحديد أصل الكلمة وأول استخدام لها في العصور العراقية القديمة لعدم توفر المعلومات الدقيقة بشأن ذلك، إلا أن أقدم إشارة كتابية واضحة لنهر الخوصر في النصوص المسمارية المكتشفة وردت في نصوص من العصرين الآشوري الوسيط (١٥٢١-٩١١ ق.م) والآشوري الحديث (المتأخر) (٩١١-٦١٢ ق.م)، ففي نصوص العصر الآشوري الوسيط وردت الكلمة مدونة بصيغة "خُسِر" $\bar{u}-si-ir$ تسبقها العلامة الدالة على النهر $\bar{u}-su-ri$ ^(١)، في حين وردت كلمة الخوصر في نصوص العصر الآشوري الحديث بالصيغتين "خُسُري" $\bar{u}-su-ri$ ^(٢)، و"خُسُر" $\bar{u}-su-ur$ ^(٣)، وأحياناً تقرأ "خوسر" $\bar{u}-sar$ ^(٤). وقد لا يبدو وجه الاختلاف كبيراً في لفظ الكلمة وصياغتها في نصوص كلا العصرين. وعلى الرغم من قلة المعلومات التي توضح أسلوب لفظ الكلمة ومعناها في غير ذلك من اللغات العربية القديمة، إلا أن كلمة الخوصر وبحسب إشارة أحد الباحثين وردت في اللغة الآرامية بصيغة "خا- و- اسر"، وتعني "أحد عشر"، إشارة إلى عدد منابع العيون التي تصب في نهر الخوصر^(٥). ولعل هذه التسمية تماثل من إذ اللفظ مع ما ورد في النصوص الآشورية أنفة الذكر، ولا يُستبعد أن تكون متأثرة بها وبأسلوب لفظها سيما وأن اللغتين الأكديّة (بلهجاتها البابلية والآشورية)، والآرامية تنتمي إلى العائلة اللغوية نفسها المعروفة باسم "اللغات العاربة"^(٦). وكذلك وردت كلمة الـ "خوسر" بفتح الخاء وتسكين الواو عند البلدانين العرب لتدل في معناها على: "وادي شرقي الموصل يفرغ ماؤه بدجلة كان مجراه من باجبارة"^(٧) القرية المعروفة مقابل الموصل تحت قناطر فيه إلى الآن وعلى تلك القناطر جامعها والمنارة إلى الآن^(٨). وواضح من الوصف أعلاه فإن المقصود به هو نهر الخوصر الذي ما تزال أيضاً تسميته مستخدمة إلى وقتنا الحاضر بذات اللفظ والمعنى تقريباً وهي بلاشك امتداد للموروث الحضاري الذي خلفه سكان بلاد الرافدين وعلى وجه الخصوص منهم الآشوريين.

وعلى الرغم من عدم توافر المعلومات التي توضح أسباب تسمية النهر بالـ (خُسُر) ومعناها في المصادر الآشورية، إلا أنه من المحتمل أن تكون تلك التسمية قد جاءت من تخصر النهر بعد اختراقه مدينة نينوى القديمة من جهة الشرق

عند موقع (تل قوينجق)^(٩) ثم اختراقه بعد ذلك الجدار الغربي للمدينة بالقرب من بوابة المسناة واستكمال مساره باتجاه نهر دجلة (الشكل ١).

وقد يعزز هذا الرأي ما ورد في معاجم اللغة العربية من أن كلمة (الخَصْر) القريبة اللفظ من كلمة الخوصر تعني في إحدى معانيها وسط الإنسان، أي المكان الذي يتخصر فيه جسم الإنسان، ومنها اشتقت كلمة (الخاصرة)^(١٠)، وربما بسبب هذه الصفة التي ينفرد بها نهر الخوصر عن غيره من الروافد الأخرى لنهر دجلة والتوائه عند تل قوينجق، اشتهر النهر بهذه التسمية واستمرت شهرته مقترنة بهذا الاسم طيلة العصور المتعاقبة وإلى يومنا هذا، إذ ما يزال النهر يعرف لدى سكان المدينة بـ (نهر الخوصر).

المحور الثاني

أقدم ذكر للخوصر في النصوص المسمارية

سبقت الإشارة إلى أن أقدم ذكر لنهر الخوصر في النصوص المسمارية المكتشفة ورد ضمن نصوص من العصر الآشوري الوسيط، وتحديدًا من عصر الملك الآشوري توكلتي - آبل - ايشرا Tukul-A-ešra-ra المعروف باسم تكلتبليرز (الأول)^(١١)، إذ يبين هذا الملك في إحدى نصوصه أنه قام بحفر قناة مائية من نهر الخوصر للاستفادة منها في إرواء وسقي حدائق القصر الملكي وغيرها من الأراضي والبساتين المزروعة، ومما جاء في النص بهذا الصدد: "بجانب الشرفة (شرفة القصر) زرعت حديقة لأجد راحتي فيها وحفرت قناة تمتد من نهر الـ(خُسر) ūsir (و) [مباشرة] إلى هذه الحديقة وعن طريقها جلبت المياه من ذلك النهر إلى المدينة لغرض السقي والإرواء...."^(١٢).

ويبدو من فحوى النص أن عدم إمكانية الإفادة من مياه نهر دجلة لإرواء المناطق الزراعية والبساتين القريبة من النهر، وفي مقدمتها حدائق القصر الملكي، لانخفاض منسوب النهر عن مستوى الأراضي المحاذية له^(١٣)، دفع الملك الآشوري توجيه جهوده للإفادة من نهر الخوصر إلى حدائق القصر والعديد من المناطق الزراعية القريبة التي لم تكن تصلها المياه من نهر دجلة.

كذلك يفهم من بعض النصوص المسمارية المكتشفة في نينوى أن الملك توكلتي - آبل - ايشرا (الأول) قام بأعمال صيانة وبناء على واجهة (جدار رصيف الميناء) لنهر الخوصر^(١٤) ودون اسمه وألقابه على عدد من قطع الآجر في ذلك البناء ليبقى ذكره خالدًا على مر العصور والأجيال، ومما جاء في إحدى تلك النصوص: "(ممتلكات) قصر توكلتي - آبل - ايشرا (الأول) الملك القوي ملك الكون [ملك آشور] ابن آشور - ريش - ايشي (الذي كان) أيضاً ملكاً قوياً ملك الكون (و) ملك آشور [...] (الآجر) يعود إلى واجهة (جدار رصيف الميناء) لنهر الـخُسر ūsir [...]".^(١٥) وفي نص آخر يتعلق أيضاً بأعمال الصيانة والترميم على واجهة جدار رصيف الميناء من جهته العليا، نقرأ بهذا الصدد: "(ممتلكات) قصر توكلتي - آبل - ايشرا (الأول): [...] (الآجر) يعود إلى واجهة (جدار رصيف الميناء) لنهر الـخُسر ūsir من الأعلى [...]".^(١٦) ويبدو مما ورد في النص أعلاه أن العمل كان مركزاً في القسم العلوي من واجهة الجدار وأن تحديد المكان وفقاً لهذا النص يعطي تصوراً بأن أعمال الصيانة والترميم كانت تجري وفق خطة عمل منظمة بإشراف وتوجيه من الملك شخصياً وحيثما تطلب الأمر ذلك.

وعلى الرغم من أن النصوص آنفة الذكر وغيرها من النصوص ذات العلاقة لا توضح بشكل دقيق أسباب اهتمام الملك بجدار رصيف الميناء لنهر الخوصر وهل أن العمل فيه كان لأغراض تجارية تتعلق بتسهيل عملية التبادل التجاري، أو لأغراض أمنية أو غير ذلك من الأسباب، إلا أنه من المحتمل أن خطورة النهر في حالة فيضانه وما كان يسببه من كوارث ودمار في الممتلكات والأراضي الزراعية، كان واحداً من الأسباب التي دفعت الملك إلى الاهتمام بجدار رصيف الميناء وسعيه لاتخاذ الإجراءات الاحترازية لدرء خطر الفيضان والتقليل من حجم الكارثة التي يسببها،

وقد يدعم هذا الرأي أن معظم النصوص التي عثر عليها المنقبون في نينوى من عصر الملك توكلتي - آبل - ايشرا تبدأ بالعبارة (ممتلكات القصر)، وإن إحدى تلك النصوص تشير ضمناً إلى حماية حدائق القصر الملكي وممتلكاته ربما من خطر فيضان النهر، ومما جاء في النص: "(ممتلكات) قصر توكلتي - آبل - ايشرا (الأول) ملك الكون (و) ملك آشور (الآجر) يعود إلى واجهة (صيف الميناء) لنهر (الخُسر) والحدائق في [نينوى]"^(١٧).

ولاشك في أن الخطورة التي كان وما يزال يشكلها نهر الخوصر في حالة فيضانه تتطلب من الجميع اتخاذ كافة الإجراءات الكفيلة لدرء مخاطره، فقد سبب فيضان هذا النهر - على سبيل المثال لا الحصر - في منتصف السبعينات من القرن الماضي عند جسر السويس الحالي دماراً كبيراً في الممتلكات العامة والخاصة، وأغرق مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية وبسبب خطورة فيضانه الذي يأتي على حين غرة، فقد وصفه أحد الباحثين بأنه من ضمن الأنهار المجنونة في العالم^(١٨).

ومهما تكن الأسباب التي دفعت الملك الآشوري توكلتي - آبل - ايشرا إلى الاهتمام بنهر الخوصر، فإن الإشارة إليه ضمن مدوناته الملكية تعد أقدم ذكر للنهر في النصوص المسمارية المكتشفة لحد الآن، ومن المحتمل أن تكشف التنقيبات مستقبلاً عن نصوص ذات علاقة بنهر الخوصر تعود بمدتها الزمنية إلى تاريخ أقدم مما أشير إليه آنفاً. كذلك وردت معلومات مهمة عن نهر الخوصر ضمن نصوص العصر الآشوري الحديث وتحديدًا من عهد الملك الآشوري سين - آخي - أربيا (٧٠٤-٦٨١ ق.م) الذي لم يألُ جهداً في توثيق معظم مراحل العمل التي قام بها لاستثمار مياه نهر الخوصر وتوسيع منابع العيون التي كانت تغذيه بالمياه. وللحيلولة دون تكرار المعلومات بهذا الشأن فإنه سيتم تناول نهر الخوصر في كتابات الملك سين - آخي - أربيا لاحقاً ضمن المحورين الثالث والرابع من هذه الدراسة^(١٩).

المحور الثالث

حوض نهر الخوصر ومصادر تجهيزه بالمياه

الموقع الجغرافي للحوض:

قبل تناول المصادر الرئيسية لتجهيز نهر الخوصر بالمياه لابد من إعطاء نبذة تعريفية موجزة عن موقع حوض النهر الذي تتركز فيه منابع العيون التي تغذي النهر بالمياه، وتهطل ضمن محيطه الأمطار التي تعد من أهم المصادر المؤثرة في ارتفاع منسوب مياه الحوض أو انخفاضه، وبحسب إحدى الدراسات التي تناولت حوض نهر الخوصر باستخدام نظم المعلومات الجغرافية (GIS) " فإن حوض النهر ينحصر بين خطي طول (٢٤.٧٥-° و (٤٣.٠٤° و (٤٦.٠٦-° شرقاً، وبين دائرتي عرض (٤٤.٧٤-° و (٣٦.٣٠° و (١٦.٩٥-° و (٣٦.٤٩° شمالاً، وتبلغ مساحة الحوض الكلية نحو (٨٣٥.٤١ كم^٢) ومحيطه نحو (٢٠٧.٥١ كم)، فيما يبلغ طول الحوض نحو (٥٢.١٢١ كم)^(٢٠). ويحد الحوض من جهة الشرق ناحية بعشيقية وجبل مقلوب^(٢١)، ومن الشمال الشرقي مرتفعات قضاء الشيخان، في حين يحده من الشمال الغربي ناحية القوش^(٢٢)، ومن جهة الغرب مناطق تلكيف^(٢٣)، وتل أسقف^(٢٤)، وجزء من نهر دجلة، ومن الجنوب مدينة الموصل^(٢٥) (الشكل ٢). ومما يميز حوض نهر الخوصر أنه يحتوي على شبكة من الجداول والمسيلات المائية التي تتباين أطوال أوديتها وسعتها المائية، وهي تسير مع انحدار سطح الأرض مكونة حوض نهر الخوصر الذي يصب عند نهايته في نهر دجلة، وتكمن أهمية موقع حوض نهر الخوصر جغرافياً في أنه يقع في منطقة فاصلة ما بين الجبال من جهة وبين السهول والوديان من جهة أخرى، وهذا الموقع بطبيعة الحال أسهم في توفير مصدر للمياه بصورة طبيعية للكثير من المناطق التي تمر بها السهول والوديان التي تغذيها مياه الأمطار والعيون^(٢٦).

يعد نهر الخوصر من الأنهار الموسمية الجريان وتشكل الأمطار إحدى أهم مصادره المائية ولاسيما في فصلي الشتاء والربيع إذ بزيادة كميات الأمطار وغزارتها يرتفع منسوب حوض النهر وتزداد سرعة تصريف النهر للمياه لتصل أحياناً إلى ما يقارب (١٠٠٠م^٣/ثا)، وكلما قلت الأمطار وشح هطولها تناقص منسوبه إلى درجة يصل في بعض الأحيان إلى حد الضمور والجفاف في فصل الصيف^(٢٧)، وكما ويلاحظ ذلك على النهر في الوقت الحاضر، وعلى الرغم من عدم وجود إحصائيات تؤشر معدل هطول الأمطار في بلاد الرافدين قديماً، إلا أنه من المؤكد أن معدل هطولها في القسم الشمالي من البلاد في فصل الشتاء كان أكثر بكثير عن غيره من الفصول الأخرى، ومن أجل التعرف على مدى أهمية الأمطار مصدراً مهماً من مصادر تغذية نهر الخوصر بالمياه ومعدلات هطولها أثناء أشهر السنة يمكن الاستعانة بالجدول الآتي لمعرفة معدلات هطول الأمطار على حوض الخوصر للمدة من (١٩٨٠-٢٠٠٥م).

الشهر	معدل تساقط الأمطار (ملم)	الشهر	معدل تساقط الأمطار (ملم)
تشرين الأول	١٣.١٤	نيسان	٤١.٣٢
تشرين الثاني	٤٩.٤٢	أيار	١٧.٦
كانون الأول	٦٤.٢٧	حزيران	١.٦٦
كانون الثاني	٥٩.٠٣	تموز	٠.٢٥
شباط	٦٤.١٤	آب	٠٠
آذار	٧٣.١٣	أيلول	٠.٧٧ ^(٢٨)

وواضح من الجدول أعلاه فإن أعلى معدل لهطول الأمطار يكون في شهر آذار وتكون الكميات الهائلة في الأشهر ما بين تشرين الثاني ونيسان هي الأعلى بالنسبة لغيرها وذات تأثير فعال على الحوض من إذ زيادة نسبة الجريان السطحي للماء في الحوض، على العكس تماماً مما هو عليه في شهري تموز وآب، إذ يصل معدل تساقط الأمطار فيهما إلى الصفر، وهذا بالتأكيد يؤثر سلباً على فعالية الحوض وعلى المناطق التي يغذيها وعلى نهر الخوصر بشكل خاص.

كذلك تتباين كميات هطول الأمطار على حوض نهر الخوصر بحسب أماكن هطولها، ففي المناطق الواقعة أعالي الحوض يقدر معدل التساقط المطري فيها على سبيل المثال للمدة (١٩٣٢-١٩٨٥) بما يقرب من (١٠٠٨ ملم) بينما لا يزيد معدل التساقط السنوي في محطة الموصل قرب مصبه بـ(٣٩٠ ملم) للمدة ذاتها، وهذا التباين يسهم بشكل مباشر في تغاير خصائص الحوض المتمثلة في تباين شبكة الصرف المائي في أحواض روافد النهر الثانوية^(٢٩).

وإذا سلمنا أن مؤشرات مناخ العراق لم يطرأ عليه تغيير كبير منذ أكثر من ستة آلاف سنة من الآن استناداً إلى رأي بعض الباحثين^(٣٠)، إذ ظل المناخ محتفظاً بطابعه العام دون تغيير جذري في خواصه التي يتميز بها وهو بارد ممطر في الشتاء وحار جاف في الصيف، فإن الأمطار بلاشك كانت تشكل إحدى أهم المصادر الرئيسية لتغذية نهر الخوصر بالمياه.

وعلى الرغم من الأهمية الكبيرة التي كانت وما تزال تشكلها الأمطار لنهر الخوصر، إلا أن تأثيرها يبقى محدوداً إن لم يكن معدماً في فصلي الصيف والخريف، ومرهوناً أيضاً بكميات الأمطار التي تهطل على النهر وحوضه، لذلك كان لا بد من تعزيز القدرة المائية لمصادر مياه النهر الأخرى ليبقى النهر معظم أشهر السنة مستمراً في جريانه، وأكثر تلك

المصادر فعالية كانت مياه العيون التي انتشرت منابعها على مشارف حوض النهر، وكان الآشوريون كما يبدو هم أول من فكروا بتوسيع منابع تلك العيون لزيادة إنتاجيتها من المياه وضخها باتجاه نهر الخوصر ومدينة نينوى كما سيتضح ذلك لاحقاً.

مياه العيون

إلى جانب الأمطار تعد مياه العيون المنتشرة منابعها في مناطق متفرقة من حوض نهر الخوصر مصدراً رئيساً ومهماً أيضاً في تغذية النهر بالمياه، وعلى الرغم من قلة المعلومات المتوفرة في النصوص المسمارية عن كيفية استغلال مياه العيون ووسائل توظيفها في تعزيز القدرة المائية لنهر الخوصر، إلا أن ما أشارت إليه بعض كتابات الملك سين - آخي - أربيا بهذا الشأن يمكن أن يعطي تصوراً بأهمية هذا المصدر المائي وبالجهد الكبير الذي بذله الملك الآشوري لاستكشاف منابع العيون التي تغذي النهر وتوسيعها لزيادة ضخ مياهها باتجاه نهر الخوصر والاستفادة منها في مختلف مجالات الحياة وفي مقدمتها تلبية حاجة الأراضي الزراعية والبساتين من المياه صيفاً وشتاءً وتشير إلى ذلك إحدى كتاباته، إذ ذكر بهذا الخصوص: "ولاستكشاف المياه من جبال مُصري^(٣١) تجشمت عناء السفر وتسلفت الجبال حتى وصلت إلى مدينة (الموناكيني) فوجدت عند المدن دور عشتار DurIshtar، وشيبا نيبا Shibaniبا، وسولو Sulu، عيوناً فوسعت ينايبعها فصارت أنهاراً... وأضفت مياهها إلى مياه الخوصر وأرويت بهذه المياه في الشتاء والفصول الأخرى حقولاً ممتدة من الشمال والجنوب من المدينة"^(٣٢). ومن دراسة الباحثين لمواقع هذه المدن المشار إليها في النص أعلاه وما يقابلها في الوقت الحاضر، فإن موقع دور عشتار على الأرجح تقوم على أطلاله اليوم قرية (باحزاني)^(٣٣) التي تبعد نحو ٢.٥ كم شمال غربي بعشيفة^(٣٤)، وأن (تل بيلا) الواقع على بعد ١٧ كم إلى الشمال الشرقي من نينوى هو الموقع الذي كانت عليه المدينة القديمة شيبانيبا، وهو أيضاً قريب من موقع قرية باحزاني^(٣٥)، وبالقرب منهما موقع مدينة سولو التي من المرجح أنها تمثل موقع (موصل تبه) وهو تل أثري قديم قائم على مجرى صغير شمال غربي باحزاني^(٣٦). ومن المؤكد أن توجه أنظار الملك الآشوري وجهوده نحو هذه المواقع المنتشرة في سهل نينوى لم يكن عفوية دون استطلاع مسبق لها ومعرفة بوجود منابع العيون فيها تتركز عند قاعدة جبل مُصري (جبل بعشيفة حالياً) وأنها تقوم على ضفاف مجرى يجلب المياه من الجبل على مدار السنة^(٣٧). ولم تكن تلك المنابع هي وحدها التي كانت تغذي نهر الخوصر بالمياه، إذ ورد في كتابات الملك سين - آخي - أربيا ما يشير إلى استكشاف أماكن آخر كانت تنتشر فيها منابع العيون وكان بالإمكان استثمار مياهها لتعزيز القدرة المائية لنهر الخوصر ولاسيما بعد ازدياد طلب الحاجة على المياه، وأكثر المناطق التي توجهت إليها الأنظار لهذا الغرض كانت تلك الواقعة إلى الشرق والشمال الشرقي من نينوى، ومما جاء في إحدى تلك الكتابات التي نقشت في الموقع القريب من مدينة (خنس)^(٣٨)، نقرأ ما يأتي: "وفي ذلك الحين وسعت مدينة نينوى توسيعاً عظيماً... ولم يكن لأهلها ماء يروون به زروعهم.. إلا أنني أرويتها من مياه القرى مسيتي Masiti وبنبكبنا Banbakaban، وشبار يشو Šapparišu، وكار شمش ناصر، وكارنوري، وريموسة Rimusa، وختا atā، ودلاين Dalayin، وريش - اينني Reš-Eni، وسولو، ودور عشتار، وشيبانيبا، واسبريرا Isparrira، وجنلينش Gingiliniš، ونمبجاتي Nampagāte وتلُ Tillu، وآلم - صوسي Alum-lusi، ومن المياه في أعالي مدينة خديبتي adabiti، وحفرت لها ثمانية عشرة قناة أجريت المياه فيها إلى نهر الخوصر... وأتيت بمعظم تلك المياه من أواسط جبال تاس^(٣٩)... وأضفت إليها مياه الجبال من اليمين واليسار ومياه كوكنو Kūkunū، وبيئرا Biturrā القريبتين منها وشيدت القناة بالحجارة وسميتها قناة سين - آخي - أربيا، وقد جمعت تلك المياه بعضها إلى بعض وسيرتها نحو العاصمة العظيمة مقر ملكي التي لم تعن (أحداً من) أجدادي الملوك (قاموا) بتوسيع أرجائها وتجميلها من قبل..."^(٤٠).

ويؤشر هذا النص كما هو واضح الى مواقع أغلب العيون التي وصل إليها الملك سين - آخي - أريبا ومن ضمنها ما سبقت الإشارة إليه في سهل نينوى وأجرى مياهها جميعاً نحو نهر الخوصر ومدينة نينوى. ومن خلال دراسة الباحثين للمدن والقرى المذكورة آنفاً فقد أشرت إلى العديد من تلك المدن والقرى القديمة في الوقت الحاضر ومعظمها يتسم بوجود عيون ماء فيها تجري على مدار السنة، وما تزال بعض تلك المواقع تحمل أسماء مقاربة لما وردت الإشارة إليها في النصوص السامرية ومنها على سبيل المثال قرية (رأس العين) التي يقابلها في النص السامري ريش - اينبي^(٤١) وهي تقع على نهر شوباصي^(٤٢) بالقرب من مصبه في نهر الخوصر، وكذلك موقع (تبة جنجي) الذي يتقارب اسمه مع المقطع الأول للاسم القديم جنجلينش، وهو عبارة عن تل أثري يتحدد موقعه جنوبي مدينة دور - شروكين (خرسباد الحالية) على ضفاف جدول صغير يرفد نهر الخوصر بالمياه على مدار السنة^(٤٣). ومن المواقع الأثرية التي يتقارب اسمها أيضاً مع ما ورد في نص الملك سين - آخي - أريبا، قرية كاني كوكا، وقرية بيدول، ويقابلها في النص الآشوري كوكنو، وبيئزرا، ولا يستبعد بعض الباحثين أن القناة التي جلبت المياه من تلك المدن قديماً هي ذاتها اليوم تتمثل بأحد الروافد الرئيسية لنهر أتروش^(٤٤).

المحور الرابع

دوافع اهتمام الآشوريين بنهر الخوصر وسبل الإفادة من مياهه

دوافع الاهتمام بنهر الخوصر

الدافع الزراعي

يأتي في مقدمة دوافع اهتمام الآشوريين بنهر الخوصر، الإفادة من مياه النهر للأغراض الزراعية، إذ أن سكان مدينة نينوى كانوا يعتمدون في زراعتهم بالدرجة الأساس على الأمطار دون غيرها من المصادر الأخرى وأشار إلى ذلك الملك سين - آخي - أريبا في إحدى كتاباته التي ذكر فيها: "... كانت حقول المدينة (نينوى) مهملة قاحلة... لم يكن لأهلها ماء يروون به زروعهم فكانوا يرفعون أنظارهم إلى السماء مستمطريها..."^(٤٥). ويؤشر هذا النص إلى أن الأراضي الزراعية في نينوى قبل إقامة المشاريع الإروائية الخاصة بالملك سين - آخي - أريبا كانت تعتمد بشكل أساسي على الأمطار، وعلى الرغم من أهميتها لهذا الجانب إلا أنها لم تكن تؤمن الحاجة الفعلية من المياه لإرواء كافة المساحات الزراعية بمختلف مناطقها، ربما بسبب تباين هطول الأمطار وتذبذبها بين منطقة وأخرى، ولأن معظم المحاصيل الزراعية الصيفية هي أصلاً لا تعتمد على الأمطار، فإنه كان لابد من توجه الأنظار نحو استثمار مياه الأنهار للأغراض الزراعية ولإيصالها حيثما تكون الحاجة إليها ماسة وضرورية. ولم يكن نهر الخوصر كما يبدو مؤهلاً للإرواء قبل إقامة المشاريع الإروائية على ضفافه وكان أشبه ما يكون بوادٍ منه إلى جدول ويشير إلى ذلك الباحث أحمد سوسة، ويذكر بهذا الشأن: "من الواضح أن نهر الخوصر كان ولا يزال أشبه بوادٍ منه إلى جدول ري فهو يحمل مياه السيول العارمة إلى نهر دجلة ولم يكن صالحاً لاستخدامه جدول ري يسيطر على السهول المجاورة لإروائها سباحاً مما زاد في عمقه وفي درجة انحداره نحو نهر دجلة شأنه في ذلك شأن الأودية التي تنحدر من أعالي الجبال وتتصب في النهر"^(٤٦). وعلى الرغم من الأهمية البالغة لنهر دجلة للعراق عموماً ومدينة نينوى على وجه الخصوص، إلا أن أنظار الملك سين - آخي - أريبا كانت متوجهة نحو مياه نهر الخوصر وليس نهر دجلة بسبب انخفاض منسوب الأخير عن مستوى الأراضي المحاذية له مما كان يحول دون إمكانية الاستفادة من مياهه بشكل كبير للأغراض الزراعية^(٤٧)، وأن وجود عيون الكبريت الواقعة في الضفة المقابلة لمدينة نينوى والقريبة من النهر عرضت مياه النهر للتلوث وتبدل مذاقه^(٤٨)، مما كان يستوجب البحث عن مصدر جديد للإفادة من مياهه، وأقرب

مصدر مائي لنهر دجلة هو نهر الخوصر الذي تغذيه منابع العيون المنتشرة ضمن حوض النهر والذي يمكن الاستفادة من مياهه في شتى مجالات الحياة.

الدافع الديني

لطالما كان الاعتقاد السائد لدى ملوك بلاد الرافدين قديماً بأنهم منتخبين من الآلهة وأنها وكلتهم في حكم البشر وكلفتهم بتقديم أفضل الخدمات لشعوبهم، فإن معظم الأعمال التي كانوا يقومون بها إنما كانوا يبتغون من ورائها كسب مرضاة الآلهة ورضاها عنهم^(٤٩)، وبحسب هذا التصور فإن العامل الديني لا بد وأن يكون أحد المحركات الأساسية التي شجعت الملك سين - آخي - أريبا على تنفيذ مشروعه الإروائي الضخم في نينوى وتوثيقه بالنص والصورة أمام الآلهة الآشورية، إذ كشف المنقبون عند الموقع المعروف باسم (بافيان)^(٥٠)، القريب من مدينة خنس إذ تبدأ القناة المعروفة باسم (قناة سين - آخي - أريبا)^(٥١)، عن مشهد فني منفذ بأسلوب النحت البارز يمثل عدداً من صور الآلهة الآشورية وأمامهم يقف الملك الآشوري سين - آخي - أريبا بخشوع وإلى جانبهم نقشت بعض كتاباته (الشكل ٣)، ومما جاء في إحدى تلك الكتابات بهذا الصدد: "وعند فوهة القناة التي حفرتها أواسط جبل تاسي نحت ست صور للآلهة العظيمة سادتي وأقمت أمامها صورتي الملكية في وضع خضوع ودونت هناك كل عمل حسن قمت به في صالح نينوى وتركت كل ذلك لأبنائي الملوك للمستقبل"^(٥٢). ولاشك في أن هذا النص يعزز ما سبقت الإشارة إليه من أن العامل الديني كان أحد الدوافع المهمة في أعمال الملوك. وللتأكيد أيضاً على أهمية هذا الدافع ومن باب تقديم الشكر والعرفان للآلهة فقد حرص الملك سين - آخي - أريبا أثناء افتتاح القناة على إقامة طقس ديني بهذه المناسبة وكلف بعض الكهنة المختصين بإجراء ذلك الطقس كما يشير إلى ذلك في النص الآتي: "ولفتح هذه القناة أرسلت كاهناً من صنف أشب وكاهناً من صنف كال..."^(٥٣).

الدافع الدعائي

فضلاً عن الدوافع المشار إليها آنفاً فإن معظم أعمال الملوك الآشوريين ولاسيما البارزين منهم أمثال الملك توكلتي - آبل - إيشرا (الأول) والملك سين - آخي - أريبا قدر تعلق الأمر بالموضوع لا تخلو من جانبها الدعائي^(٥٤) طالما كان ذلك يصب في تثبيت سلطة الملك ورغبته في إظهار إنجازاته التي حققها أثناء مدة حكمه والتباهي بها أمام الآلهة أولاً وأمام شعبه، ولنكون سافراً خالداً وتذكيراً لنشاطاته خلال العصور المتعاقبة، ولعل ما أشار إليه الملك سين - آخي - أريبا في إحدى مدوناته التي يطغى على مقدمتها طابع العظمة والقوة يمكن أن يؤشر إلى أهمية هذا الدافع في توجهاته وأعماله التي كان يقوم بها، ونقرأ مما جاء فيه بهذا الصدد: "وفي هذه الأيام أن سين - آخي - أريبا ملك آشور ورئيس جميع الأمراء والذي دانت له البلاد من مشرق الشمس لمغربها قد أسقيت نينوى وأرويت ما يجاورها بمياه القنوات التي أمرت بتشبيدها وزرعت حدائق ورياضاً فيها جميع الأشجار المثمرة أكانت تنبت في الجبال أم السهول وقد أطلقت المياه إلى إذ لم تصل فأحييت مزارع أضر بها المحل وأعددت الماء لحقول الحبوب الممتدة من أواسط مدينة تريبص^(٥٥) ونينوى..."^(٥٦).

الدافع الأمني

إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن أكثر التهديدات التي كانت تتعرض لها مدينة نينوى تأتي من جهة الشرق، فإننا لا نستبعد أيضاً أن يكون العامل الأمني أو الدفاعي هو من العوامل التي دفعت إلى الاهتمام بنهر الخوصر للسيطرة على

مياهه وتوظيف جزء منها في تقوية وتعزيز الخنادق الدفاعية التي كانت تحيط بالمدينة من جانبها الشرقي وتأمين حدودها أثناء تعرضها للغزو المحتمل أو الهجوم المفاجئ^(٥٧).

سبل الإفادة من مياه نهر الخوصر

إقامة السدود

بحسب المعلومات الواردة في بعض كتابات الملك سين - آخي - أريبا، فإن أولى مراحل مشروعه الإروائي لتجهيز مدينة نينوى بالمياه كانت تصب في كيفية استثمار مياه نهر الخوصر باعتباره الأقرب إلى نهر دجلة ومركز المدينة^(٥٨)، وربما سبق هذه المرحلة التي بدأت بعد عام من تاريخ حكم الملك سين - آخي - أريبا أي في حدود ٧٠٣ ق.م قيامه أولاً بتنظيف وتوسيع مجرى النهر الممتد نحو (١٦ كم) شمال مدينة نينوى وإلى مصبه عند نهر دجلة^(٥٩)، إلا أنه وبسبب انخفاض مستوى منسوب النهر ودرجة انحداره الشديد فإنه لم يكن بالإمكان الاستفادة من مياهه بشكل مباشر والسيطرة عليها دون إقامة مشاريع الري على ضفافه وفي مقدمة ذلك السدود، وأشار إلى ذلك الملك سين - آخي - أريبا في إحدى كتاباته وذكر: " كانت مياه الخوصر تجري من قديم الزمن في منسوب واطئ ولم يقم أحد من آبائي بسدها (حجزها) وقد بقيت تتحدر إلى دجلة (دون أن يستفاد منها أحد)"^(٦٠). وهذا النص يؤشر كما هو واضح إلى أن أولى الخطوات التي كان ينبغي القيام بها لاستثمار مياه نهر الخوصر تكمن في إقامة السدود على النهر لحصر مياهه وحجزها ومن ثم السيطرة عليها، ويبدو أن الملك سين - آخي - أريبا هو أول من قام بهذه الخطوة وأنشأ عدداً من السدود على نهر الخوصر لاستثمار مياهه والاستفادة منها، ولعل السد الحجري الواقع على بعد (١٥ كم) تقريباً شمال مدينة نينوى والقريب من قرية بایبوخ يعد من أهم السدود التي أقامها الملك الآشوري سين - آخي - أريبا على نهر الخوصر^(٦١)، ربما لموقعه الذي يتصدر أعالي النهر وأهميته في تنظيم حركة المياه وتوزيعها ولاسيما باتجاه القناة التي حفرها الملك عند موقع السد والتي عرفت في النصوص المسمارية باسم "قناة كيسيري"^(٦٢). ومن أجل تحقيق الغرض الذي من أجله أنشئ السد كان لابد من وجود نواظم سيطرة تتحكم بالمياه عند النقطة التي يدخل فيها نهر الخوصر المدينة^(٦٣)، ويرجح بعض الباحثين ممن قاموا بأعمال التنقيب في موقع السد المذكور أن التل الموجود حالياً بالقرب من السد ربما كان يمثل قديماً المكان الذي من خلاله كان الآشوريون يديرون عملية تنظيم دخول المياه إلى نينوى^(٦٤)، ومع ذلك فإن القائمين على إنجاز هذا المشروع لم يخرجوا من حساباتهم الهندسية أن يتركوا مجالاً في السد لتحويل مياه الأمطار والسيول العارمة من أن تأخذ طريقها بشكل طبيعي إلى نهر دجلة عن طريق مجرى نهر الخوصر الأصلي وليس كيسيري^(٦٥). كذلك ينسب إلى الملك سين - آخي - أريبا قيامه بإنشاء سد آخر على نهر الخوصر عند قرية الجيلة الواقعة بالقرب من السور الشرقي لنينوى، وكان الهدف من إقامته كما يبدو هو السيطرة على مياه نهر الخوصر قبل اختراقه مدينة نينوى القديمة^(٦٦)، والاستفادة من مياهه في شتى المجالات، ومنها رغبته في إنشاء مستنقع ومرتع للعديد من الحيوانات والأشجار التي جلبها من خارج بلاده^(٦٧)، وأشار إلى ذلك في إحدى كتاباته التي ذكر فيها: "وحجزت تلك المياه بسد يمنع بثوقها فأنشأت مستنقعا أطلقت فيه وبالقرب منه طيور جيري وخنازير وأيائل... وقد قطعت أشجار التوت والسرو من نتاج الحدائق والقصب النابت في المستنقع واستعملتها في بناء قصري الملكي"^(٦٨). وما تزال آثار هذا السد الحجري المتهدم ماثلة للعيان إلى يومنا هذا في منطقة الجيلة وقد أصبح موقعه الآن داخل مدينة نينوى بعد التوسع العمراني للمدينة من جانبها الأيسر^(٦٩) (الشكل ٤).

إلى ذلك فإن هناك أيضاً آثاراً لسدود أخر شُخصت ما بين سد الجيلة والنوران غير واضحة المعالم وهي تحتاج إلى مزيد من الدراسات والبحث لتثبيت المعلومات الدقيقة حولها^(٧٠).

ولاشك في أن جميع السدود المقامة قديماً على نهر الخوصر فضلاً عن أهميتها في تنظيم السيطرة على مياه النهر كان لها الدور الكبير أيضاً في درء خطر الفيضان الذي كان يهدد المدينة على حين غرة، تماماً كما هو حال سد الموصل على سبيل المثال الذي كان أحد أهداف إنشائه هو الحد من خطر الفيضان عن المناطق الوسطى والجنوبية

من العراق^(٧١). ولا يستبعد بعض الباحثين أن يكون تدمير السدود المقامة على نهر الخوصر من قبل الميديين الغزاة وفيضان النهر هو أحد الأسباب التي أسهمت في اختراق دفاعات مدينة نينوى ومن ثم سقوطها بيد الأعداء^(٧٢).
ومن أجل تعزيز القدرة المائية لنهر الخوصر مع ازدياد طلب الحاجة على المياه وقلة المتوفر منها أمام التوسع في إحياء الأراضي والبساتين الزراعية، فقد سعى الملك سين - آخي - أربيا بجهودٍ مضيئة إلى استئثار مياه نهر الكومل ومنابع العيون التي كانت تغذيه، وأولى الأعمال الضخمة التي قام بها لتحقيق هذا الهدف هو بنائه سداً حاجزاً من الحجر على نهر الكومل عند مضيق بافيان القريب من مدينة خنس سالفة الذكر، كان الهدف الأساس منه هو حجز مياه النهر والعيون التي تغذيه أمام السد وتكوين أشبه ما يكون بخزان كبير تتجمع فيه المياه، ومنه يتم نقلها عن طريق قناة مائية إلى نهر الخوصر^(٧٣).

حفر القنوات المائية

قناة كيسيري^(٧٤)

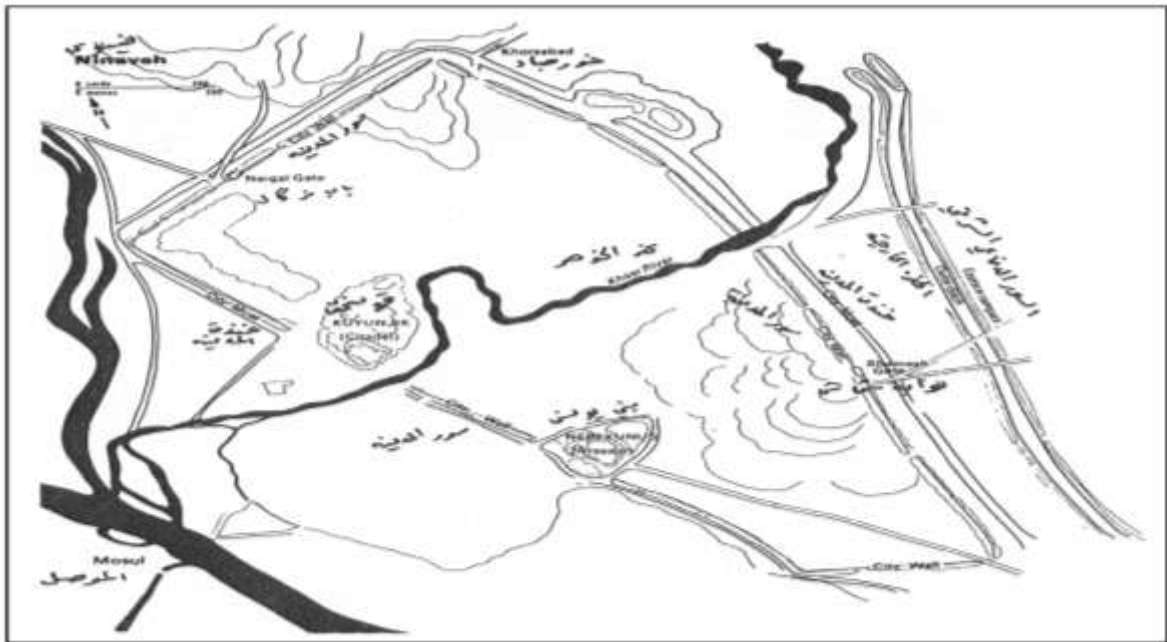
سبقت الإشارة إلى أن المرحلة الأولى ضمن مشروع الملك سين - آخي - أربيا الإروائي في نينوى تضمنت إلى جانب إنشاء السدود على نهر الخوصر، القيام بحفر قناة مائية عند أحد السدود الواقعة أعالي نهر الخوصر عرفت في المصادر الآشورية باسم "قناة كيسيري"^(٧٥)، وتعد هذه القناة من أبرز القنوات التي وردت الإشارة إليها ضمن تلك المرحلة، ويبدو أن من الأسباب الرئيسية التي دفعت الملك إلى حفر هذه القناة هو انخفاض منسوب نهر الخوصر وعدم إمكانية الاستفادة منه لإرواء الحقول والبساتين الزراعية القريبة من ضفافه ولاسيما تلك الواقعة من جهة الغرب، ولأجل ذلك كان لابد من حفر قناة تأخذ المياه من أمام السد وتسير بها بمحاذاة نهر الخوصر غرباً إلى مدينة نينوى ومن خلالها كان يتم إرواء معظم الحقول والبساتين الواقعة ضمن مسارها أو القريبة منها^(٧٦)، ويتوضح ذلك من إحدى كتابات الملك التي أشار فيها: "... ولكي يعمروا البساتين وزعت الأراضي القريبة من المدينة إلى مقاطعات... على مواطني نينوى وملكتهم إياها ولكي أجعل تلك البساتين عامرة وزاهية حفرت قناة بفؤوس من حديد ممتدة من التلال والوديان من مدينة كيسيري إلى سهول نينوى وجعلت ماء القناة يجري في الخوصر مسافة (نصف بيرو) أي (١٦ كم) ثم حفرت سواقي تتفرع إلى البساتين من تلك القناة"^(٧٧) (الشكل ٥).

قناة سين - آخي - أربيا

من المؤكد أن السد الذي أقامه الملك سين - آخي - أربيا على نهر الكومل والمشار إليه آنفاً لم يكن ليحقق الغرض الذي من أجله أقيم دون وجود قناة مائية تأخذ المياه من أمام السد في الجانب الغربي لنهر الكومل وتسير بها نحو نهر الخوصر ومنه إلى مدينة نينوى، وقد وردت الإشارة إلى هذه القناة في إحدى كتابات الملك إذ نقرأ بهذا الخصوص: "... وحفرت لها (أي نينوى) ثماني عشر قناة أجريت المياه فيها إلى نهر الخوصر... وسميت القناة باسمي"^(٧٨). ولاشك في أن هذه القناة التي اقترن اسمها باسم الملك شخصياً قد نالت شهرة واسعة أكثر من غيرها من القنوات ربما بسبب تسميتها، فضلاً عن كونها أضخم وأطول قناة أنجزت ضمن المشروع الإروائي الخاص بالعاصمة القديمة نينوى^(٧٩)، إذ بحسب المعلومات المتوفرة فإن طول القناة انطلاقاً من نقطة مشروعها على نهر الكومل القريب من قرية (جروانه)^(٨٠) وانتهاءً بمدينة نينوى يُقدر بنحو (٨٠ كم)^(٨١) (الشكل ٦)، وإنها ضمن مسارها كانت تمر بالعديد من القرى ومنها: "جفته، بيران، مامرشان، باقصره، بيت نار، محمودان، مقبل، كندالة، شيفشيرين"^(٨٢). وعلى بعد كيلومتر ونصف من قرية شيفشيرين عثر المنقبون على معبر للقناة تم من خلاله الاستدلال على عرض القناة في ذلك الموقع بنحو (١٩ متراً)^(٨٣). ومن أجل السيطرة على مياه القناة جُهزت فوهة القناة بناظم وبوابة لتنظيم كميات المياه التي تجري في القناة وكان يتحكم بألية هذا الناظم شخص مسؤول عن ذلك يتولى مهمة فتح الناظم وغلفه كلما تطلب الأمر ذلك وكلما دعت الحاجة إلى تنظيم انسيابية المياه نحو القناة^(٨٤).

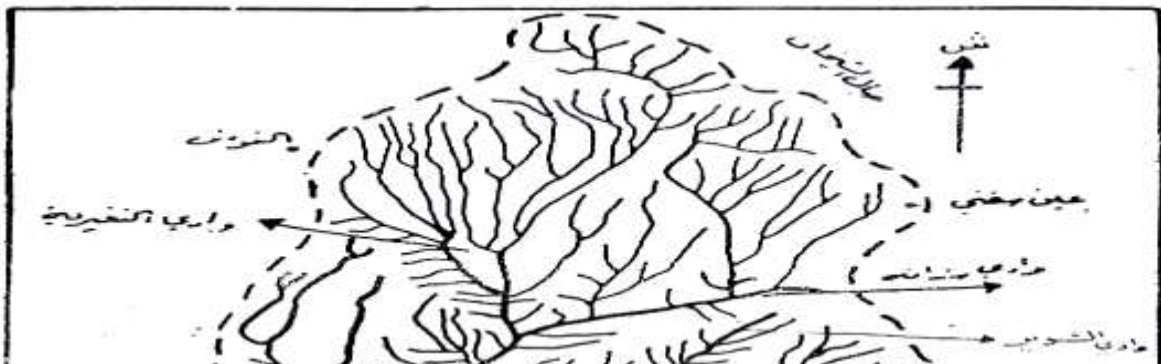
إلى ذلك فإن الدراسات الحديثة ذات العلاقة بنهر الخوصر أفادت كذلك وبالاعتماد على الصور الفوتوغرافية من الجو أن منطقة فايدة والمراكز القريبة منها كانت من ضمن المناطق التي توجهت إليها الأنظار قديماً لاستثمار مياه العيون فيها وتسييرها عبر قنوات جنوباً باتجاه مدينة نينوى، وعلى الرغم من قلة المعلومات الواردة في النصوص المسمارية عن أسماء تلك القنوات التي من خلالها كان يتم إيصال مياه عيون تلك المناطق إلى نهر الخوصر وأنها لم تتل الأهمية التي نالتها القنوات سالفه الذكر مثل قناة كيسييري وقناة سين - آخي - أريبا من إذ التدوين والتوثيق في كتابات الملك، إلا أن آثار بعض تلك القنوات ما يزال إلى وقتنا الحاضر ماثلاً للعيان ضمن مسار خطها القديم، وهذا يؤكد بلاشك الدور المهم الذي كانت تؤديه تلك القنوات في نقل مياه تلك المناطق وإيصالها إلى إذ يجب أن تصل ومنها كما يبدو إلى نهر الخوصر^(٨٥) (الشكل ٧).

واستناداً إلى ما سبق عرضه من معلومات في ضوء النصوص المسمارية، فإن نهر الخوصر يعد من الأنهار القديمة المهمة التي توجهت أنظار الآشوريين إليه للإفادة من مياهه وإقامة المشاريع الإروائية على ضفافه، ولعل الاهتمام بهذا النهر يمكن في أهمية موقعه الجغرافي بالنسبة لمدينة نينوى ونهر دجلة، وكذلك قرب مناطق تجهيزه بالمياه العذبة ممثلة بمنابع العيون الواقعة ضمن مشارف حوض النهر وإمكانية الوصول إليها كما فعل ذلك الملك الآشوري سين - آخي - أريبا عندما وصل إلى العديد من تلك المنابع ووسع فيها لزيادة إنتاجيتها من المياه وتوظيفها ليس فقط في تعزيز القدرة المائية لنهر الخوصر وإنما أيضاً لإرواء العديد من المساحات الزراعية التي كانت تقع ضمن مسار القنوات التي أنشئت لهذا الغرض ومنها إلى نهر الخوصر.



الشكل (١)

مخطط يبين تخصر نهر الخوصر بعد اختراقه الجدار الشرقي لمدينة نينوى القديمة
عن: سيتون لويد، آثار بلاد الرافدين، ص ٢٣٣.



الشكل (٢)

الحدود الجغرافية لحوض نهر الخوصر

عن: مهدي الصحاف وكاظم موسى، هيدرومورفومترية حوض رافد الخوصر، مصدر سابق، ص ٣٥.



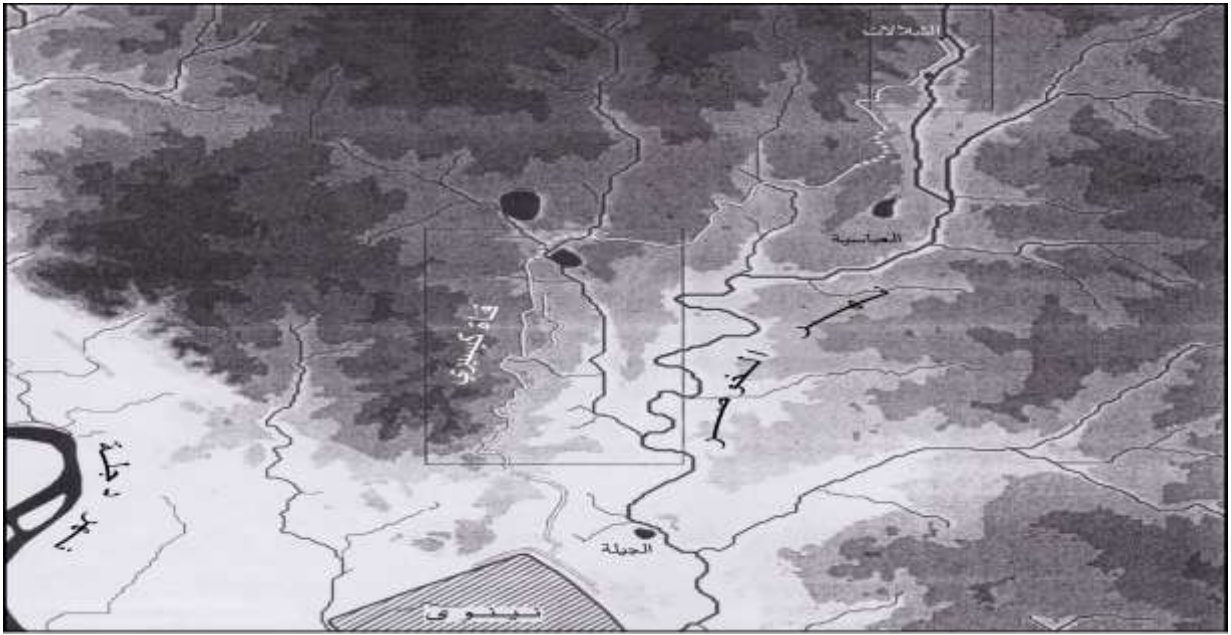
الشكل (٣)

مشهد بالنحت البارز يمثل عدداً من الآلهة الآشورية والملك سين - آخي - أريبا
نفذ عند فوهة قناته في نهر الكومل بالقرب من قرية خنس

عن: Andre Parrot, Nineveh and Babylon, (France: 1961), P. 73.



الشكل (٤)
البناء الحجري المتبقي من سد الجيلة
عن: طارق عبد الوهاب مظلوم ، نينوى، مصدر سابق، ص ٨٣.

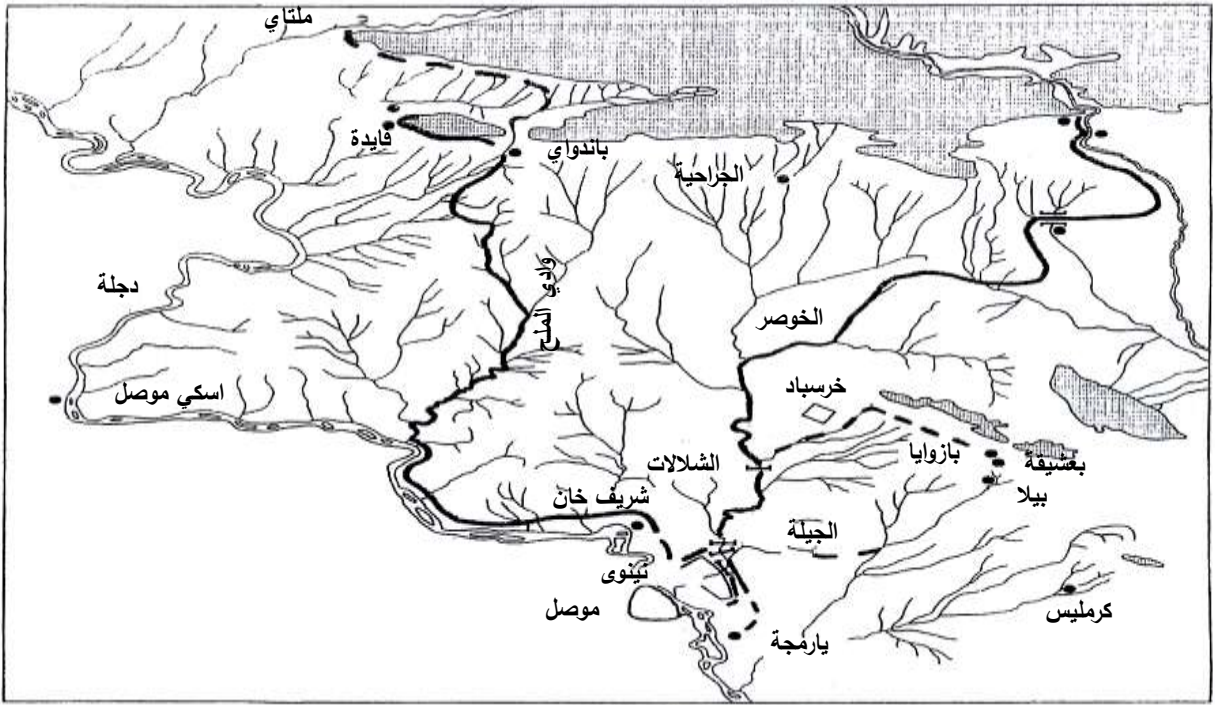


الشكل (٥)
خارطة توضح مسار قناة كيسيري
Jason UR, Sennacherib's Northern, Op. Cit., P. 321
تعريب الباحث عن:



الشكل (٦)

خارطة تخطيطية توضح بداية قناة سين - آخي - أريبا ومسارها باتجاه نهر الخوصر
عن: أحمد سوسة، تاريخ حضارة وادي الرافدين، ج ٢، ص ١٠١.



الشكل (٧)

خارطة توضح بعض القنوات الآشورية غرب الخوصر
تعريب الباحث عن: Edzard, Op. Cit., P. 406.

الهوامش

(1) A. Kirk Grayson, Assyrian Rulers of the Early First Millennium BC, (1114-859 BC), Vol. 2, Part. 1, (Toronto: 1991), PP. 55, 67, 68, (R.MA).

(٢) نائل حنون، مدن قديمة ومواقع أثرية - دراسة في الجغرافية التاريخية للعراق الشمالي خلال العصور الآشورية، (دمشق: ٢٠٠٩)، ص ١٦١.

(3) D.D. Luckenbill, *The Annals of Sennacherib*, (Chicago: 1924), PP. 114-124.

- (٤) عامر سليمان، تأصيل أسماء أنهار العراق الرئيسية، مركز دجلة لدراسات وتصاميم مشاريع الري، (موصل: ١٩٩٤)، ص ٥.
- (٥) جمال بابان، أصول أسماء المدن والمواقع الجغرافية، ج ١، ط ٢، (بغداد: ١٩٨٩)، ص ١٠٧.
- (٦) يقصد باللغات العاربية، لغات العرب القدماء الذين سكنوا الجزيرة العربية من الأكديين والكنعانيين والآراميين والعبريين وغيرهم، وانضوت لغاتهم جميعاً ضمن عائلة لغوية أطلق عليها اسم (اللغات العاربية). ينظر للمزيد عن هذا الموضوع: عامر سليمان، اللغات العاربية، لغات العرب القدماء، مجلة المجتمع العلمي العراقي، مجلد (٥١)، ج ٣، بغداد: ٢٠٠٤، ص ٧٥-٩٠.
- (٧) تقرأ أيضاً باجباري أو بيت جباري وهي تسمية آرامية تعني "دار أو موطن الجبابرة"، والتسمية تطلق على قرية قديمة واقعة إلى الشرق من مدينة الموصل بنحو ميل منها ما بين سور نينوى والموصل، وكان نهر الخوصر يمر من تحت قنطرةها. ينظر: كوركيس عواد، تحقيقات أثرية تاريخية بلدانية شرق الموصل، مجلة سومر، مجلد (١٧)، ١٩٦١، ص ٤٨.
- (٨) شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان، مجلد (٣)، (بيروت: دس)، ص ٤٠٦.
- (٩) من المعالم الأثرية المهمة في مدينة نينوى يقع إلى الشمال من نهر الخوصر يبلغ طوله نحو كيلومتر واحد وعرضه نصف كيلومتر وارتفاعه في أعلى نقطة نحو ٣١ متراً عن مستوى سطح البحر، وكلمة (قوينجق) هي كلمة تركية مركبة من كلمتين (كوي) وتعني القرية و(انجك) هم جماعة من التركمان نزلوا خرائب نينوى وسمي التل باسمهم. ينظر: طارق مظلوم، نينوى، (بغداد: ١٩٧١)، ص ١٧.
- (١٠) محمد بن أبي بكر عبدالقادر الرازي، مختار الصحاح، (كويت: ١٩٨٣)، ص ١٧٧.
- (١١) من أبرز الملوك الآشوريين وهو ابن وخليفة الملك آشور - ريش - ايشي حكم للمدة من (١١١٥-١٠٧٧ ق.م) وحقق إنجازات مهمة في مدة حكمه سياسياً وعسكرياً وعمرانياً. ينظر: هاري ساكز، قوة آشور، ترجمة: عامر سليمان، (بغداد: ١٩٩٩)، ص ٩٠-١٠١.
- (12) RIMA, Vol. 2, Part. 1, P. 55; Dietz Otte Edzard, *Reallexikon der Assyriologie und vorderasiatischen Archaologie*, Neunter Bands, (Berlin: 1998), P. 403.
- (١٣) فوزي رشيد، نظم الإرواء في العراق القديم، مجلة آفاق عربية، عدد (١)، ١٩٨٥، ص ٩١.
- (١٤) من ضمن المواقع الأثرية التي طالتها بعض فرق التنقيب الأجنبية في نينوى عام ١٩٨٩ هو جدار نهر الخوصر، وكشفت تلك التنقيبات عن موقعين مهمين عند الجدار إحداهما كان يمثل على الأرجح بقايا رصيف الميناء. ينظر:
- Mlouse Scott and John Magginnis, *Nots on Nineveh, Iraq*, Vol. 52, 1990, P. 68.
- (15) RIMA, Vol. 2, Part. 1, P. 67.
- (16) Ibid, P. 67-68.
- (17) Ibid, P. 68.
- (١٨) صلاح حميد الجنابي، جغرافية منطقة الموصل، موسوعة الموصل الحضارية، ج ١، موصل، ١٩٩١، ص ١٦.
- (١٩) ينظر: المحور الثالث والرابع من هذه الدراسة.
- (٢٠) تناولت هذه الدراسة حوض نهر الخوصر معتمدة على التقانة الحديثة باستخدام معطيات التحسس النائي وبرنامجي Arc Gis Vg. 3(9) WMS V7.1. للمزيد من المعلومات ينظر: بسمة عبدالمنعم محمد صالح الجوادي، تطابق الخرائط البيئية لحوض وادي الخوصر باستخدام نظم المعلومات الجغرافية - دراسة لدعم القرار الهيدرولوجي، رسالة دبلوم عالي، (موصل: ٢٠١١)، ص ١-١٤٧.
- (٢١) يقع شرقي الموصل على بعد (٢٠ ميل) ويبلغ ارتفاعه نحو (١٠٠٠م)، وتسميته جاءت من شكل الطبقات الصخرية في منحدراته إذ تظهر هاوية بشكل متناسق، فضلاً عن هذه التسمية فهو يعرف أيضاً في السريانية باسم جبل (ألفاف) وجبل متي. ينظر: كوركيس عواد ويعقوب سرقيس، أصول أسماء مدن وقرى عراقية، (بيروت: ٢٠٠٩)، ص ٦٨.
- (٢٢) بلدة قديمة واقعة شمال مدينة الموصل بمسافة (٣١ ميل) في لحف جبل ألقوش واسم البلدة آرامي وربما مأخوذ من كلمة "أيل قشتي" وتعني "الله قوسي". ينظر: كوركيس عواد ويعقوب سرقيس، أصول أسماء مدن، المصدر السابق، ص ١٦-٢٢.
- (٢٣) اسم آرامي مكون من لفظتين (تل) و(كيفا) وتعني (تل الحجارة) وتقع تكليف شمالي الموصل بمسافة (٩ ميل). المصدر نفسه، ص ٦٠.
- (٢٤) قرية شمالي الموصل على بعد (٢٠ ميل) أسمها آرامي ويعني (التل المنتصب). المصدر نفسه، ص ٥٤-٥٥.

- (٢٥) بسمة عبدالمنعم، تطابق الخرائط، المصدر السابق، ص ١؛ مهدي الصحاف وكاظم موسى، هيدرومورفومترية حوض رافد الخوصر - دراسة في الجيومورفولوجيا التطبيقية، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية، عدد (٢٤-٢٥)، بغداد: ١٩٩٠، ص ٣٨.
- (٢٦) بسمة عبدالمنعم، تطابق الخرائط، المصدر السابق، ص ٦١.
- (٢٧) صلاح حميد الجنابي، الخصائص الجغرافية الموضعية لمدينة الموصل، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية، عدد (٣٢)، ١٩٩٦، ص ٩٨.
- (٢٨) الجدول مأخوذ من بسمة عبدالمنعم، تطابق الخرائط، المصدر السابق، ص ١١.
- (٢٩) مهدي الصحاف وكاظم موسى، هيدرومورفومترية حوض رافد الخوصر، المصدر السابق، ص ٤٩.
- (٣٠) ينظر: فاضل باقر الحسيني، تطور مناخ العراق عبر الأزمنة الجيولوجية والعصور التاريخية، مجلة الجغرافية العراقية، مجلد (١٠) ١٩٧٨، ص ٣٨٨؛ جابر خليل إبراهيم، البيئة الجغرافية وأثرها في وحدة حضارة بلاد الرافدين، وقائع ندوة وحدة حضارة بلاد الرافدين، (بغداد: ٢٠٠١)، ص ١٨-١٩؛ فاروق ناصر الراوي، المناخ في النصوص المسمارية، بحث غير منشور.
- (٣١) تعرف جبال مُصري Musri في الوقت الحاضر باسم جبل بعشيفة وعنده تنتشر عدد من منابع العيون المهمة مثل عين بعشيفة وبحزاني والفاضلية. ينظر:
- Jason ur, Senna Cheribs Northern Assyria Canal's New Insights from Satellite Imagery and Aerial Photograph, Iraq, Vol. LXVII, Part. 1, 2005, P. 323.
- (32) D.D. Luckenbill, The Annals, Op. Cit., PP. 114-115;
- فؤاد سفر، أعمال الإرواء التي قام بها سنحاريب، مجلة سومر، مجلد (٣)، ج ١، ١٩٤٧، ص ٨٣.
- (٣٣) قرية كبيرة تابعة لناحية بعشيفة على بعد (١٦ ميلاً) شرقي الموصل، أسمها في السريانية يعني "بيت حزاني" أي "محل الرؤية والمشهد". كوركيس عواد ويعقوب سركيس، أصول أسماء مدن، المصدر السابق، ص ٢٣-٢٥.
- (٣٤) بعشيفة لفظة سريانية تعني "بيت الظالم أو الفاسد" أو "بيت المنكوبين" تبعد نحو (١٦ ميلاً) شرقي الموصل وهي مركز ناحية تابعة لقضاء الموصل. كوركيس عواد ويعقوب سركيس، أصول أسماء مدن، المصدر السابق، ص ٣٠-٣٥.
- (٣٥) نائل حنون، مدن قديمة ومواقع أثرية، المصدر السابق، ص ١٧٣-١٧٤.
- (٣٦) المصدر نفسه، ص ١٨٩.
- (٣٧) المصدر نفسه، ص ١٧٣-١٧٤.
- (٣٨) مدينة واقعة إلى الشمال الشرقي من بلدة عين سفني بنحو عشرة كيلومترات وهي من قرى قضاء الشخان القريبة من موقع بافيان، عرفت في العصر الآشوري الوسيط باسم "خُنوسا" وفي العصر الآشوري الحديث "خُنوسا" بفتح الخاء، وما تزال إلى وقتنا الحاضر تعرف بإسم خنس. نائل حنون، مدن من بلاد الرافدين خُلدها التاريخ، مجلة ما بين النهرين، عدد (٧٥-٧٦)، ١٩٩٢، ص ١١٤-١١٥؛ كوركيس عواد، تحقيقات أثرية، المصدر السابق، ص ٧٥.
- (٣٩) يعتقد الباحثان ياكبسون ولويد أن التسمية الحالية لمنطقة دوسكي الواقعة ضمن حدود دهوك هي تسمية مأخوذة من جبال تاس أودوس التي وردت في نص الملك سين - آخي - أربيبا. نقلاً عن أحمد سوسة، تاريخ حضارة وادي الرافدين، ج ٢، (بغداد: ١٩٨٦)، هامش ص ١٠٣.
- (40) D.D. Luckenbill, Historical Records of Assyria, from Sargon to the End, Vol. 11, PP. 149-150, (ARAB).
- (41) J. Read, Studies in Assyrian Geography, in Revued Assyriologie, LXXII, Paris, 1978, P. 158 (RA).
- (٤٢) يعد نهر شوباصي أحد روافد نهر الخوصر الذي ينبع من المنطقة التي تتوسط جبلي بعشيفة ومقلوب ويصب في نهر الخوصر إلى الشمال من مدينة خرسباد الحالية. نائل حنون، مدن قديمة ومواقع أثرية، المصدر السابق، ص ١٨٥.
- (43) J. Read, Op. Cit., P. 157.
- (٤٤) نائل حنون، مدن قديمة ومواقع أثرية، المصدر السابق، ص ١٨٥.
- (45) ARAB, Vol. 11, P. 149.
- (٤٦) أحمد سوسة، مشروع سنحاريب لإرواء منطقة نينوى، مجلة المجمع العلمي العراقي، عدد (٩)، ١٩٦١، ص ١٧٤.
- (٤٧) فوزي رشيد، نظم الإرواء في العراق القديم، مجلة آفاق عربية، عدد (١)، ١٩٨٥، ص ٩١؛ هاري ساكز، قوة آشور، المصدر السابق، ص ١٤٤.
- (٤٨) طارق مظلوم، مشروع إرواء نينوى، مجلة النفط والتنمية، عدد (٧-٨)، ١٩٨١، ص ٩٢.
- (٤٩) هاري ساكز، عظمة بابل، ترجمة: عامر سليمان، (موصل: ١٩٧٩)، ص ٤٢٥.

- (٥٠) قرية صغيرة واقعة ضمن قضاء الشبخان وهي قريبة من نهر الكومل الذي يصب في نهر الخازر وقد اكتسبت شهرة واسعة بسبب موقعها القريب من المنحوتات الآشورية التي نحتت في صخور على مجرى نهر الكومل. ينظر: كوركيس عواد ويعقوب سركيس، أصول أسماء مدن، المصدر السابق، ص ٣٧.
- (٥١) فؤاد سفر، أعمال الإرواء، المصدر السابق، ص ٨١.
- (٥٢) المصدر نفسه، ص ٨١.
- (٥٣) المصدر نفسه، ص ٨٠.
- (٥٤) عن هذا الموضوع ينظر: أزهار هاشم شيت، الدعاية والإعلام في العصر الآشوري الحديث (٩١١-٦١٢ ق.م)، أطروحة دكتوراه غير منشورة، (موصل: ٢٠٠٠).
- (٥٥) مدينة آشورية تقع على بعد ثمانية كيلومترات إلى الشمال الغربي من نينوى وأطلالها اليوم يشغله تل أثري يحيط به عدد من القرى الصغيرة أهمها شريخان والرشيديية. ينظر: عامر سليمان، الآثار الباقية، موسوعة الموصل الحضارية، ج ١، (موصل: ١٩٩١)، ص ٥٣٥-٥٣٧.
- (56) ARAB, Vol. 11, P. 150.
- (57) Simo Parpola and M. Whiting, Proceedings of the 10th Anniversry Symposium of the Neo-Assyrian Text Corpus Project, (Helsinki: 1995), P. 319.
- (58) David Oates Studies in the Ancient History of Northern Iraq, (London: 1968), P.50.
- (٥٩) فؤاد سفر، أعمال الإرواء، المصدر السابق، ص ٨٣.
- (60) D.D. Luckenbill, The Annals, OP. Cit., P. 114.
- (٦١) طارق مظلوم، مشروع إرواء نينوى، المصدر السابق، ص ٩٤.
- (٦٢) سيتم تناول القناة في الصفحات اللاحقة من هذا المحور.
- (63) Dietz Otte Edzard, Op. Cit., PP. 399-400.
- (٦٤) طارق مظلوم، مشروع إرواء نينوى، المصدر السابق، ص ٩٤.
- (٦٥) أحمد سوسة، مشروع سنحاريب، المصدر السابق، ص ١٧٤-١٧٦؛ ابتهاج عادل الطائي، مشروع سنحاريب الإروائي لإيصال الماء إلى عاصمته نينوى، مجلة التربية والعلم، مجلد (١٣)، عدد (١)، ٢٠٠٦، ص ٨٠-٨١.
- (66) Dietz Otte Edzard, Op. Cit., P. 406.
- (67) David Oates, Studies, Op. Cit., P. 49.
- (٦٨) فؤاد سفر، أعمال الإرواء، المصدر السابق، ص ٨٣.
- (٦٩) نجيب خروفة، الموارد المائية وأثرها في وحدة الحضارة في العراق، وقائع ندوة وحدة حضارة بلاد الرافدين، (بغداد: ٢٠٠١)، ص ٤٥.
- (٧٠) طارق مظلوم، مشروع إرواء نينوى، المصدر السابق، ص ٩٤.
- (٧١) صلاح حميد الجنابي، جغرافية منطقة الموصل، المصدر السابق، ص ١٧.
- (٧٢) هاري ساكز، قوة آشور، المصدر السابق، ص ١٧٣؛ صباح حميد، نينوى خلال عصر السلالة السرجونية (٧٢١-٦١٢ ق.م)، رسالة ماجستير غير منشورة، (موصل: ٢٠٠٣)، ص ٩٤؛ ذنون محمد، نهر الخوصر بين حضارة الأجداد وإهمال الأحفاد، مقال مسحوب من الانترنت على الموقع: www.qf.org.qa/iobs.
- (٧٣) أحمد سوسة، مشروع سنحاريب، المصدر السابق، ص ١٧٧.
- (٧٤) كلمة تعني بحسب رأي بعض الباحثين تعني سد أو حاجز، وربما منها اشتق اسم البلدة والقناة. نقلاً عن أحمد سوسة، تاريخ حضارة، ج ٢، المصدر السابق، ص ١٠٥.
- (٧٥) يرجح بعض الباحثين المختصين إن موقع قناة كيسيبي التي ورد ذكرها في كتابات الملك سين - آخي - أربيا يمكن أن يكون في الوقت الحاضر (تل يمته) الذي يبعد عن مدينة نينوى نحو (١٦ كم) باتجاه أعالي نهر الخوصر، وهذه المسافة تكاد تكون ذاتها التي تقطعها مياه القناة والمقدرة في النص المسماري بنحو (واحد ونصف بيرو) أي ساعة مضاعفة ونصف الساعة، وهي تعادل نحو (١٦ كم). وهذا الرأي قد يكون الأكثر دقة في تحديد الموقع استناداً إلى بعض الأدلة الأثرية من الرأي الذي يقول إن مدينة كيسيبي ربما تمثل أطلالها اليوم إحدى التلال المحيطة بمنطقة الشلالات التي تبعد نحو (١٣ كم) إلى الشمال من مركز المدينة. حول هذه الآراء ينظر: نائل حنون، مدن قديمة ومواقع أثرية، المصدر السابق، ص ١٩٣-١٩٤.
- (٧٦) أحمد سوسة، مشروع سنحاريب، المصدر السابق، ص ١٧٤.

(77) ARAB, Vol. 11, P. 149;

فؤاد سفر، أعمال الإرواء، المصدر السابق، ص ٨٣.

(78) ARAB, Vol. 11, P. 149.

(79) David Oates, Studies, Op. Cit., P. 51.

(٨٠) كذلك تجدر الإشارة إلى أن أضخم القناطر التي أقامها الآشوريون ضمن مشروع الملك سين - آخي - أريبا الإروائي في نينوى كانت تلك الواقعة بالقرب من قرية جروانة وعرفت باسمها (عبارة جروانة). للمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع ينظر:

Thorkild Jacobson and S. Lloyd, Sennacherib's Aqueduct at Jerwan, (Chicago: 1935).

(٨١) كويندولين لايك، معجم عمارة الشرق الأدنى القديم، ترجمة: غسان طه، (ماليزيا: ٢٠٠٣)، ص ٢٧٢.

(٨٢) أحمد سوسة، مشروع سنحاريب، المصدر السابق، ص ١٧٧.

(٨٣) المصدر نفسه، ص ١٧٧.

(٨٤) أحمد سوسة، تاريخ حضارة وادي الرافدين، ج ٢، المصدر السابق، ص ١٠٩.

(٨٥) للمزيد من المعلومات ينظر:

Jason ur, Op. Cit., PP. 325-334; David Oates, Studies, Op. Cit., P. 51.

(86) Andre Parrot, Nineveh and Babylon, (France: 1961), Translated by Stuart Gilbert and James Emmons.